

القيم والمبادئ.. ما بين ما نؤمن به وما لا نتنازل عنه

كثيراً ما نستخدم كلمتي القيم والمبادئ وكأنهما شيء واحد، فنقول: هذا إنسان صاحب قيم، وذاك رجل صاحب مبادئ، دون أن نتوقف طويلاً أمام الفارق الدقيق بينهما.

أن بين القيمة والمبدأ صلة وثيقة، لكن لكل منهما مساحة مختلفة في تكوين الإنسان؛ فالقيمة هي ما نراه جميلاً وجديراً بالتمسك، أما المبدأ فهو ما نراه صحيحاً ولا نرضى بالتخلي عنه.

القيمة تسكن في أعماقنا، وتشكل نظرتنا إلى الأشياء، والمبدأ يظهر في مواقفنا، ويكشف حقيقة ما استقر في أعماقنا.

القيمة هي ما نؤمن بأهميته ونراه جديراً بأن يكون جزءاً من حياتنا وشخصيتنا.

فالصدق قيمة، لأننا نراه خلقاً جميلاً ونشعر أن الحياة أجمل حين يسودها الصدق.

والكرم قيمة، لأننا نرى في العطاء فضيلة ترفع الإنسان.

والرحمة قيمة، لأنها تجعل علاقتنا بالآخرين أكثر إنسانية.

والعدل قيمة، لأننا نؤمن أن الناس ينبغي أن يأخذوا حقوقهم دون ظلم أو محاباة.

وقد تختلف القيم من إنسان إلى آخر في ترتيبها وأولوياتها؛ فما يضعه أحدهم في مقدمة اهتماماته قد يأتي عند غيره في مرتبة متأخرة.

لكن القيمة، مهما بلغت عظمتها، تظل في جانب منها قناعة داخلية؛ قد نؤمن بها ونحبها ونتحدث عنها، دون أن ننجح دائماً في تحويلها إلى سلوك.

وهنا يأتي دور المبدأ.

المبدأ... حين تتحول القيمة إلى موقف

فالذي يرى الصدق قيمة، ثم يقول الحقيقة حين تكون في صالحه، فهو يؤمن بالصدق.

أما الذي يقول الحقيقة حين تكون عليه لا له، فقد جعل من الصدق مبدأً.

الذي يرى العدل قيمة، ثم يعدل حين يكون الأمر في مصلحته، فقد أحب العدل.

أما الذي يعدل حتى حين يكون العدل ضده أو ضد من يحب، فقد اتخذ العدل مبدأً.

وهنا تكمن عظمة المبادئ؛ فهي لا تختبر الإنسان في الأوقات السهلة، وإنما تظهر حقيقتها عندما يصبح الالتزام بها مكلفاً.

قد تتغير القيم في ترتيبها مع مرور الزمن وتجارب الحياة.

فالشباب قد يجعل النجاح والطموح في مقدمة قيمه، ثم يكتشف مع الأيام أن الأسرة والوفاء وراحة البال أثمن مما كان يظن.

أما المبدأ فغالباً ما يكون أكثر ثباتاً؛ لأنه يمثل حداً أخلاقياً لا يريد الإنسان تجاوزه.

قد أغير عملي، ومكاني، وأصدقائي، وطريقة عيشي، وقد أعيد ترتيب أولوياتي، لكنني أقول لنفسِي:

لن أظلم.

لن أخون.

لن أبيع إنسانيّتي من أجل مصلحة.

لن أنكر فضلاً صنعته أحد لي.

هذه ليست مجرد قيم نحبها، بل مبادئ نقف عندها.

الفرق يظهر في لحظة الاختبار

يمكن أن نعرف قيم الإنسان من حديثه، لكننا لا نعرف مبادئه إلا من مواقفه.

قد يحدثك إنسان طويلاً عن الأمانة، ثم تأتيه فرصة يستطيع فيها أن يأخذ مالا لا يراه أحد، فهنا يبدأ الامتحان.

إن أخذه، فقد كانت الأمانة عنده قيمة يتحدث عنها.

وإن تركه رغم قدرته على أخذه، فقد أصبحت الأمانة مبدأً يحكمه.

وقد يتحدث آخر عن الوفاء، ثم إذا اختلف مع صديقه كشف أسرارهِ وأساء إليه.

هنا نكتشف أن الوفاء كان قيمة جميلة في الكلام، لكنه لم يبلغ مرتبة المبدأ في السلوك.

ولهذا قيل بمعنى بليغ: المواقف هي التي تمنح المبادئ صدقها.

ليست كل قيمة مبدأً

وهذه نقطة جديرة بالتأمل.

قد تكون الرحمة قيمة عظيمة، لكن الرحمة لا تعني أن نتساهل مع الظلم.

وقد يكون التسامح قيمة نبيلة، لكن التسامح لا يعني أن نسمح للآخرين بإهدار كرامتنا.

وقد يكون الحب قيمة جميلة، لكنه لا يبرر الخيانة أو الظلم أو التنازل عن الحق.

فالمبادئ تعمل أحياناً على ضبط القيم وتوازنها.

أحب ابني، وهذه قيمة.

لكن حبي له لا يجعلني أظلمه في مقابل أخيه.

وأحب صديقي، وهذه قيمة.

لكن صداقتي له لا تجعلني أشهد له بالباطل.

وأحب النجاح، وهذه قيمة.

لكن سعيي إليه لا يسمح لي بالغش أو سرقة جهد الآخرين.

وهنا تتجلى حكمة الإنسان؛ فليست العبرة بأن يحمل في قلبه قيماً كثيرة، وإنما أن يعرف كيف يوازن بينها، ومتى تتحول إلى مبادئ تحكم سلوكه.

وفي النهاية...

القيم هي البوصلة التي نخبرنا إلى أين نريد أن نتجه، والمبادئ هي الحدود التي لا نسمح لأنفسنا بتجاوزها ونحن في الطريق.

القيم تمنح حياتنا المعنى، والمبادئ تمنح شخصيتنا الثبات.

فالقيم ما يسكن في القلب، والمبادئ ما يقف عليه الإنسان.

والفرق بينهما أن القيمة تُعرّف بما تقول، أما المبدأ فيُعرّف بما تفعل حين يكون الفعل صعباً.

ولعل أجمل ما في الإنسان أن تتآلف قيمه ومبادئه، فلا يكون بين ما يؤمن به وما يفعله مسافة؛ عندها يصبح الصدق فيه طبعاً، والوفاء فيه موقفاً، والعدل فيه سلوكاً، والكرامة فيه أسلوب حياة.